الحضارة : مفهومها ومكوناتها

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى سليم

والعدد ماثل للطبع ، اختار الله إلى جواره المرحوم الدكتور شاكر مصطفى سليم ، عن عمر امضاه في البحث والتأليف ، واغنى بنتاجه الغزير وعلمه الثر الثقافة العربية وعلومها الانسانية والاجتماعية ، ولعل هذا البحث القيّم اخر ما كتب .

وباسم المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدكتور محيي الدين صابر ، واسرة معهد البحوث والدراسات العربية ندعو الله أن يرحمه برحمته ويسكنه فسيح جناته ، ويلهم أهله الصبر والسلوان .

تكوّن دراسة الحضارة جزءاً هاماً للغاية من الدراسات الانثروبولوجية ، بل هي موضوع فرع كبير من فروع علم الانثروبولوجيا ، هو (الانثروبولوجيا الحضارية) . وكان الاهتمام بدراسة حضارة الشعوب البدائية قديماً قد اكتسب شكلاً علمياً واضحاً على يد (السير ادورد تايلر) .

وحين ظهرت المدارس الانثروبولوجية كتب للمدارس الحضارية الازدهار الكبير في (اميركا) لاسباب أهمها انعدام تقليد القيام بالدراة الميدانية ، وهو التقليد الذي أدى الى ازدهار المدرسة الوظيفية في (بريطانيا) ، ووجود مجتمعات (الهنود الاميركيين) في (أميركا) ، وهي مجتمعات مجزأة تناسب الدراسة الحضارية أكثر من الدراسات الوظيفية . ولقد نمت الدراسات الحضارية وازدهرت على ايدي علماء كبار في (بريطانيا) و (اميركا) ساهموا فيها في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن ، أمثال (تايلر) و (ويت - رفرز) و (فرنز بواس) و (رالف لنتن) و (روبرت لوي) و (كروبر) و (كلوكهون) و (هيرمسكوفتس) و (ووزلر) و (دكسن) .

والانسان هو الحيوان الوحيد الذي يملك حضارة ، لانه وحده استطاع أن يخلق حضارة . حتى الحيوانات التي تعرف نوعاً من التنظيم ، مثل النمل والنحل ، لا تملك حضارة ، لان التنظيم الذي تطبقه لا ينتقل اليها كتراث من جيل الى جيل ، بل هو مجرد تجارب تنتقل اليها عن طريق الوراثة بالجينات ، وهي تجارب مستندة أساسيا الى الغرائز بدلاً من التعليم والاعداد الاجتماعي الذي تنتقل بواسطته حضارة الانسان من جيل الى جيل . وبقدرة الانسان على نقل الحضارة من جيل لآخر يستطيع ادامتها وتطويرها بما يتلاءم وظروفه وبيئته . .

تعّرف الحضارة تعاريف عدة . وكان أول من حاول تعريفها هو العالم (الألماني) (جوستاف كلم) ، فقال انها (العادات والمعلومات والمهارات والحياة الخاصة والعامة ، في السلم والحرب ، والدين والعلم والفن . وتتمثل الحضارة في نقل تجارب الماضي الى الجيل الجديد) .

وعّرفها العالم (البريطاني) (السر ادورد تايلر) عام (١٨٧١) تعريفه المشهور الذي لا يزال صحيحاً مقبولاً حتى الآن وهو (الحضارة أو المدنية ، هي ذلك الكم المركب الذي يحتوي على المعلومات والمعتقدات والفنون والقيم والقوانين والتقاليد والقابليات كافة ، والعادات التي يكتسبها الانسان بصفته عضواً في مجتمع ما) . وواضح ان (تايلر) يستعمل كلمتي حضارة ، ومدنية ، بمدلول واحد ، في حين أن المتفق عليه الآن هو أن الثانية ليست الا درجة من الاولى .

ويعّرف الاستاذ (روبرت لوي) الحضارة بانها (مجموع ما يحصل عليه الفرد من مجتمعه ، أي المعتقدات ، والتقاليد ، والنماذج الفنية ، والعادات المتعلقة بالغذاء والحرف ، التي تصل إليه لا عن طريق فعالياته الابداعية بل كميراث من الماضي ينقل اليه بالتعليم العفوي أو المنظم) .

أما الاستاذ (رالف بدنكتن) فيأتي بتعريف فريد ، اذ يرى أن حضارة شعب ما تتكون من (مجموعة الادوات المادية والفكرية التي يستطيع بها ذلك الشعب اشباع احتياجاته الحياتية ، والاجتماعية ، ويكيف نفسه لبيئته) .

ويعرف الاستاذ (ملفل هيرسكوفتس) بانها (الجزء من البيئة الذي يخلقه الانسان) ، ثم يصفها بانها تُتَعَلّم ، وتُلقّن ، وذات كيانات متميزة ، وقابلة للتقسيم الى اوجه مختلفة ، ومتغيرة ، وتتفرع من كل العناصر المكونة لوجود الانسان) .

ويرى أغلب العلماء المحدثين أن الحضارة ليست اجزاءاً عضوية لانها خارجة بالمرة عن نطاق الظواهر الطبيعية . وبما انها لا توجد الا بوجود الانسان ، فهي اذاً ظاهرة اجتماعية نفسية ، تحمل في اذهان الافراد ، ولا تجد لنفسها تعبيراً إلا بهم . ولكنها ، مع ذلك ، تختلف عن شخصية الفرد من عدة وجوه . ففي الوقت الذي تتكون الحضارة اساسياً من الافكار والقيم العاطفية والسلوك الذي تفرضه العادات ، وهو القسم الاعظم من مكونات الشخصية ، فانها لا تحوي الوظائف العقلية . ورغم أنها تزود الفرد بأغلب المفاهيم التي تكوّن الاساس الذي تقوم عليه الفعاليات العقلية فان الأساليب الواقعية للتفكير ، والتعليل ، أو التسبيب ، أساليب شخصية وليست حضارية . وعلى هذا فمن المستحيل تفسير أية حضارة بالاعتماد على علم النفس الفردي فقط ، كما أن من المستحيل تفسيرها بدون الرجوع اليه . ففي الحضارة يلتقي الفرد والمجتمع وكل يقوم بنصيبه في بنائها . فشكل الحضارات ومحتواها ومجرد وجودها لا يمكن أن يستنتج أو يدرس الا من السلوك الذي تفرضه تلك الحضارات . فالحضارة شيء غير ملموس ، ولا يمكن فهمها بصورة مباشرة حتى من قبل الافراد الذين يعيشونها .

وتنتقل الحضارة من فرد الى آخر ، أو من مجتمع الى آخر عن طريق تطبيقاتها الواضحة فحسب . وهي تُتعلّم ولا تورث بموجب قوانين علم الحياة . فالانسان يتعلم بصورة اضطرارية منذ نشأته الأساليب المختلفة لحضارته اما عن طريق التقليد والمحاكاة ، أو عن طريق التلقين الذي قد يكون غير منتظم ، كالذي يتلقاه من والديه ، وأقرانه ، وافراد المجتمع كافة الذين يعيش بينهم ، أو أن يكون منتظماً كما هو الحال في التثقيف بالمدارس والكتاتيب ، أو التدريب الفني ، وغير ذلك .

وعلى هذا فيمكن أن توصف الحضارة بانها (فوق الفرد) ، لأن لها القدرة أن تخلد وتعيش رغم زوال أي من الأفراد الذين عاشوها في أية فترة من فترات الزمن . وتستطيع الحضارة ان تعيش لأنها تلعب دورا في تشكيل شخصيات الافراد الذين يولودون في حدودها فيقعون تحت تأثيرها . فيولد الطفل بلا شخصية ، ولكن شخصيته تتكون تدريجيا ، وتنمو وتتفاعل امكانياته الموروثة مع المحيط الخارجي الذي يعيش فيه ، المحيط الذي يتكون من التطبيقات الحضارية والشخصيات التي كونتها الحضارة . فالحضارة خارجة عن الفرد قبل ميلاده ، ولكنها لا تلبث ان تصبح جزءاً من شخصيته حين يكبر .

ومن الخصائص البارزة للحضارة قابليتها على الاستمرار منذ أوجدها الانسان

الأول . فهي تمثل ، بصفة عامة ، ميراث سلالة الانسان بأجمعها . وكما أن الجنس البشري ورث صفات خاصة ، ميزت جماعات منه عن أخرى ، فان الحضارات كذلك ورثت صفات صبغت كل واحدة منها بلون يميزها عن غيرها . والحضارات كالعناصر البشرية ، طعمت بعضها البعض ، وامتزجت بعضها بالبعض الاخر ، وانقسمت الى أقسام عدة . وعلى هذا فالطراز العام لأية حضارة هو تتابع عوامل تاريخية طويلة العمر معقدة . وواضح أننا نستطيع أن نفسر محتوى أية حضارة تفسيرا دقيقا لو عرفنا ماضيها التاريخي ، ولكن تاريخ كل الحضارات مجهول . فالتاريخ المكتوب لا يمتد الى أبعد من ستة آلاف عام ، وبعد هذا علينا أن نعتمد على الحفريات التي لا توضح لنا إلا وجوها محدودة من الحضارة . أما بدايات الحضارات فمجهولة تماما بالنسبة لنا .

والحضارة دائمة التبدل . ولقد شاع غلطا أن الحضارات البدائية ثابتة غير متغيرة . ولقد حدث هذا الغلط من رغبة قدامى الانثروبولوجيين في أن يجدوا في الحضارات البدائية طرازات لحضارات الانسان في فجر حياته ، كما ساعد على انتشار هذا الرأي الخاطىء انعدام الوثائق التاريخية عن الحضارات البدائية في أية فترة تسبق اتصال الانسان الحديث بها . وصحيح أن معدل سرعة تبدل الحضارة يختلف من شعب لآخر ، بل هو يختلف من حضارة شعب واحد من فترة لأخرى ، ولكن من غير المحتمل أن تكون حضارة بعينها قد ظلت ثابتة تماما في أي وقت من الأوقات .

وهناك جانبان لمعضل حركية الحضارة . الجانب الأول هو أساليب النمو والتبدل التي تعطي الحضارة شكلها ومحتواها في أية نقطة من نقاط التاريخ ، وهذه لا تفهم إلا بالطريقة التاريخية ، أي بدراسة محتوى الحضارة لاطول فترة زمنية ممكنة . والجانب الثاني تفاعل العناصر الحضارية ، وهذا يمكن دراسته بصورة مباشرة ، على أن تكون الدراسة دقيقة وشاملة .

والحضارة ، ككل ، هي استجابة لكل احتياجات المجتمع الذي يتبناها . فحيثما يعيش الانسان في هذا العالم ، من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي ، فانه يشعر بالاحتياجات عينها ، ويدفع بالدوافع نفسها . فعلى افراد الجنس البشري جميعا أن يأكلوا ، ويلبسوا ، ويزينوا أنفسهم ، ويقيموا مساكن أو ملاجىء مناسبة . وعليهم أن يتناسلوا ، ويحافظوا على أنفسهم ونسائهم وأطفالهم ، وان يتخذوا لهم دينا ليحققوا لانفسهم نوعا من الراحة النفسية والشعور بالأمن . فكلهم يملكون ما يطلق عليه (وحدة النفس) . وبغض النظر عن البيئة الطبيعية أو المناخ الذي يحيط بالانسان ، فانه استطاع

ان يكيف نفسه لتلك البيئة وذلك المناخ كيفما كانا ، وهذا ما يبرر فكرة انه حيوان ذو حضارة . فهناك اجزاء محدودة جدا من الكرة الارضية لم يستطع الانسان العيش فيها . لقد نجحت بعض مجاميع الانسان في تكييف انفسها لبيئاتها الطبيعية أكثر من مجاميع اخرى ، ولكن مادامت النتيجة الحتمية لعجز الانسان عن التكيف لبيئته هي الفناء ، فانه نجح لحدود متفاوتة في الوصول الى البقاء ، أي الى التكيف ، وهذا يعني أنه نجح في خلق حضارة .

هناك نظريات ومدارس عدة في تفسير نشوء الحضارة وانتشارها وطرازاتها ، أهمها (المدرسة البيئية) و (المدرسة التطورية) و (المدرسة الانتشارية) .

وأقدم هذه المدارس هي المدرسة البيئية . فلقد امتد رجالها من العهد اليوناني حتى وقتنا الحاضر . وكان أبرزهم (هيبو قراط) و (تين) و (مونتسكيو) و (بودن) و (بكل) و (راتسل) و (هنتنگتن) . وتتلخص آراء هذه المدرسة مع اختلافات بسيطة في الرأي بين رجالها ، بان العوامل الطبيعية للمنطقة الجغرافية ، وبصورة خاصة الظروف المناخية قد كونت المظهر الخارجي للافراد ، وعينت طرز حياتهم ، وقضت على كل فرد لا يملك الصفات التي تتفق وتلك البيئة . ولقد ردد البيئيون جملة يمكن أن تعتبر شعارا لمدرستهم ، هي : (التأثير القوي الطاغي للبيئة) . ولعل من المفيد أن تقتبس فقرة من كتاب أحد رجال هذه المدرسة ، وهو (روح القوانين) لـ (مونتسكيو) ، لنتعرف على فلسفتهم . (من الواضح ان الجثث الضخمة والبناء القوي لاجسام سكان المناطق الشمالية أقل استجابة للأذى من الأجسام الرقيقة لسكان المناطق الدافئة . ويترتب على هذا أن تكون أرواح سكان المناطق الباردة أقل شعورا بالألم . فانت ان أردت أن تجعل روسيا يحس بالألم فعليك أن تسلخ عنه جلده وهو حي) .

ولكن المتفق عليه الآن بصورة عامة ، وهذا يشمل حتى بعض ابطال المدرسة البيئية ، أمثال (هنتنگتن) ، أن القول بان البيئة هي التي تخلق الحضارات ، وتخلق الفوارق الطبيعية بين البشر ، قول غير مقنع ، ولا مقبول ، ولو صحت نظرية البيئتين لكان طبيعيا أن نجد تطابقا بين المناطق الجغرافية والحضارات من جهة ، وبينها وبين العناصر البشرية من جهة اخرى . ونحن نعرف أن البيئات المتشابهة تضم حضارات مختلفة ، وأن حضارات متشابهة تقوم في بيئات مختلفة . كما أن الأمر كذلك بالضبط بالنسبة للعناصر البشرية . ولكن من المؤكد ألاّ سبيل مطلقا لانكار اثر البيئة على الحضارة . فاعتماد الانسان المباشر على البيئة في غذائه وملبسه يربط حضارته ربطا قويا

ببيئته . فالبيئة ترسم أولا الحدود لحضارة الانسان . فهناك مناطق لا يستطيع الانسان أن يعيش فيها كقمم الجبال العالية والصحاري المجدبة ، وهناك أماكن لا يستطيع ان يطور فيها حضارته ، أو أن يرتفع فيها لمستوى الراحة والضمان لنفسه . كما أن البيئة تحدد نوعية الحياة المادية للمجتمعات ، وتلعب دورا كبيرا في تكوين الأشكال الخارجية لكثير من الحضارات . ولذلك فان البيئة تكون عاملا مسيطرا هاما في تطور الحضارة . فيضطر (سكان استراليا الأصليون) ، مثلا ، لقلة الماء ، وفقر التربة ، وندرة الصيد والنبات ، ان يحييوا حياة تجول يعيشون فيها على الصيد ، وجمع الغذاء . ولأن المناخ حار جاف فانهم يستطيعون التجول عراة ، والسكنى في نوع من الملاجىء البدائية التي هي ليست أكثر من ستائر مهلهلة من القش والاغصان تصد عنهم غائلة الرياح . وحضارة (الاسكيمو) تعكس بشكل ظاهر تأثير المناخ والبيئة . فهم يعتمدون في صنع ادواتهم وملابسهم على منتجات العدد القليل من الحيوانات التي تعيش في المناطق القطبية . فهم يلبسون جلود غزال الرنة والفقمة ، ويصنعون اقواسهم ، ورؤوس نبالهم وحرباتهم من عظام تلك الحيوانات وعاج اسنانها ، ويستخرجون الزيت الذي يستعملونه في الاضاءة والتدفئة من شحم تلك الحيوانات . ويبني (الاسكيمو) بيته من الثلج الذي يغطي المنطقة ، كما يصنع قواربه وخيمته من جلد الحوت أو الفقمة . وهو يجمع قطع الاخشاب التي تحملها الانهار ليستفيد منها في صناعاته البدائية ، وأدواته البسيطة المحدودة .

ولا يمل رجال المدرسة البيئية من الاستشهاد بـ (الاسكيمو) ليثبتوا صحة نظريتهم . ولكن نفس المثل يقوم دليلا على أن حضارات المنطقة الجغرافية الواحدة لا تتطابق ، بل ان عنصر الابداع الفردي فيها واضح كل الوضوح . فسكان القطب الشمالي في (اميركا) يسكنون في بيوت ثلجية ، في حين أن جيرانهم في (سايبيريا) القطبية ، الذين يعيشون على نفس خط العرض ، وبنفس الظروف المناخية ، لا يملكون تلك القابلية الهندسية ، ولذا فهم لا يستطيعون اشادة البيوت الثلجية . فـ (الكورياك) و (الجنكجي) يصنعون خياما من الجلد والخشب . ولكن هاتين القبيلتين استطاعتا ان تستأنس غزال الرنة في حين لم يتوصل (الاسكيمو) لاكثر من صيده . أما (التنگس) ، وهي قبيلة (سايبيرية) اخرى فانها ذهبت الى حد معرفة ركوب ذلك الحيوان السريع القوي . والفوارق الحضارية في التنظيم الاجتماعي ، أو اللغة ، أو المعتقدات أو الادب الشعبية أقوى وأبرز من الفوارق في الحياة المادية .

أما المدرسة التطورية فكانت تؤمن بتطور النظم الاجتماعية وتركز على دراسة ذلك

التطور . ولقد ظهرت هذه المدرسة في القرن التاسع عشر وكان من أبرز رجالها (باخوفن) و (ماكليناان) و (السر هنري مين) و (لوس مورگن) . ولأن تاريخ حضارات البشر بصورة عامة ، وتاريخ النظم الاجتماعية بصورة خاصة ، مجهول في الفترات القديمة فلقد لجأ رجال هذه المدرسة الى التأريخ الظني ، فاقاموه على أساس ما أسموه (المبادىء المعروفة عن طبيعة الانسان) . وكانت الصعوبة الرئيسة التي واجهها رجال هذه المدرسة هي ان هناك امكانية رسم أكثر من تاريخ ظني واحد لأي نظام اجتماعي أو أي أصل حضاري . وركز هؤلاء العلماء جهدهم على موضوعين بالذات هما العائلة والدين . وكانوا جميعا يؤمنون بالتطور الاجتماعي ، وبالتقدم ، وبان المجتمعات انساق طبيعية . فمثلا ، رسم (ماكليناان) ، وهو من أكبر المؤمنين بالقوانين العامة للتطور الاجتماعي ، تاريخا لتطور المجتمع البشري . فهول يقول (لابد لنا أن نفترض أن الانسان الأول كان يحيا حياة اباحية ، أو حياة خلط جنسي ، وان الشواهد تدل أيضا على انه كان يعيش ، في كل مجتمعاته القديمة ، في جماعات طوطمية صغيرة ، تقوم على اساس القرابة ، وتنتشر بينها عادة الأخذ بالثأر . كما أن تلك الجماعات كانت تمارس الزواج الخارجي ، وهو نظام يفرض فيه المجتمع على الرجل أن يتزوج من خارج مجموعته القرابية . وهذا الطراز من الزواج نشأ كضرورة حتمية نتيجة لممارسة المجتمع عادة وأن الأطفال الاناث ، وهو بدوره نظام تبنته المجتمعات القديمة نتيجة لانتشار الحروب ، والأخذ بالثأر . فاصبح الاسلوب الطبيعي للحصول على الزوجة هو الأسر مادام الرجل لا يستطيع أن يتزوج من مجتمعه ، ولا من بين اعدائه المحيطين به بطريقة ودية ، أو عن طريق الخطبة ، أو المفاوضة . ثم تطورت تلك المجتمعات القديمة الى مجتمعات متعددة الازواج . وكان الانتساب في تلك الفترة الى الأم ، فتطور الى نظام الانتساب الى الأب . ثم بدأ نظام العائلة المعروفة بيننا الآن بالظهور تدريجيا ، بعد أن سبقته في الظهور مجاميع اجتماعية اكبر هي القبيلة ثم العشيرة ، فالفخذ ، فالعائلة الممتدة) .

ورسم عالم تطوري آخر هو (لوس مورگن) خمس عشرة مرحلة تطورية للزواج والعائلة بنظام يشبه هذا النظام الى حد كبير . وكتبت المجلدات الضخمة في المناقشات الحادة حول : هل سبقت العائلة الفخذ كوحدة اساسية في التنظيم الاجتماعي أم العكس ؟ أو هل سبق نظام الانتساب الى الأب نظام الانتساب الى الأم أو كان الأمر عكس ذلك ؟ وهل عرف الانسان عبادة السلف أولا أم عبادة الطبيعة ؟

وأراد رجال هذه المدرسة أن يستفيدوا من علم الآثار ، وهو العلم الذي يعتمد على

الشواهد المادية وليس على الظن والتخمين . ولكنهم لم يجدوا فيه عوناً كبيرا . وذلك لأن هذا العلم لا يستطيع أن يلقي ضوءا واضحا على النظم الاجتماعية والمعتقدات ، بل ولا يستطيع أن يبرز الجانب الروحي من الحضارة بصورة عامة ، رغم قدرته على تقديم خطوط عامة عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي لحياة الانسان التي سبقت الفترة التاريخية .

ويعتبر رجال هذه المدرسة الأشكال المختلفة من الحضارات البدائية المعاصرة شواهد أو دلائل على مراحل التطور الاجتماعي التي مرت بها حضاراتنا المتقدمة حتى وصلت الى أعلى مراحل التقدم الحضاري ممثلة في المدنية (الاوروبية) المعاصرة . وحين يرى رجال هذه المدرسة تشابها بين عناصر حضارية معينة في حضارات قائمة في أجزاء مختلفة من العالم فانهم يفسرونه بالمذهب المسمى (مذهب التوازي) أو (التطور المتوازي) . فهم يرون أن الانسان ذو عقل واحد ونفسية واحدة ، أو هو يملك ما اطلق عليه (الوحدة النفسية) . كما ان احتياجاته الاساسية واحدة . فاذا ما واجه هذا الانسان ظروفا متشابهة فانه قد يصل بصورة منفصلة ، وبدون أن يتصل بعض ببعض ويقتبس بعضه من بعض الى اختراعات متشابهة . ويدللون على نظريتهم بوجود اختراعات أو سمات حضارية متشابهة ، بل متطابقة ، نشأت في بيئات متباعدة تفصل بينها حواجز وعوارض طبيعية ينتفي معها أي اتصال أو اقتباس . ولكن هذه النظرية تلقي معارضة شديدة من رجال المدرسة الانتشارية ، ومن مدارس أخرى . ويتفق معارضو هذا الرأي مع دعاته حول نشوء العناصر المادية للحضارة ، وخاصة ما كان منها بسيطا ، كعصا الحراثة ، أو الزوارق المحفورة من جذوع الأشجار ، ولكنهم يمانعون في قبول نفس النظرية فيما يخص النظم الاجتماعية ، وخاصة ما كان منها معقدا . وأحد الأمثلة التي تضرب في هذا الصدد هو (نفاس الرجال) ، وهو نظام اجتماعي يفرض بموجبه على الزوج الذي تلد زوجته أن يرقد في فراشه ويتقبل تهاني الاصدقاء ، مشاركا زوجته حالة النفاس ، بل ومتظاهرا بانه هو الذي وضع المولود . وهذا النظام موجود بين بعض قبائل (الهنود) في (اميركا الجنوبية) ، كما انه ظل موجوداً حتى وقت قريب بين فلاحي (جبال البرينيز) التي تفصل بين (فرنسا) و (أسبانيا) . وواضح ، كما يدعي أصحاب مذهب التوازي ، أن لا مجال للظن بوجود الاتصال والاقتباس بين هاتين الحضارتين . وعليه فيجب أن يفسر وجود هذا النظام في تلك الأماكن المنفصلة عن طريق مذهب التوازي . ولكن هذا المثل يعتبر في الوقت نفسه ، من امضى الاسلحة التي يهاجم بها اعداء المدرسة

التطورية نظرية التطور المتوازي ، على اساس ان هذا نظام اجتماعي غريب ومعقد ولا يمكن أن يتوصل إليه الانسان في مكانين مختلفين ، بدون الاتصال والاقتباس . ولقد طبق رجال هذه المدرسة نظريتهم في التطور المتوازي على المعالم الحضارية كافة ؛ الادوات والاسلحة ، والاجهزة ، والنظم الاجتماعية بما فيها الدين والعائلة ، بل قالوا ان اي تشابه حضاري يمكن أن يفسر بهذه النظرية .

أما المدرسة الانتشارية ، فانها ترى أن الحضارة كثيرا ما تستعار . وبناء على ذلك فان تشابه العناصر الحضارية في المجتمعات المختلفة لا ينشأ عن التطور المتوازي الناجم عن تشابه الامكانيات الاجتماعية والطبيعية والانسانية . ولو استطعنا أن نتتبع تاريخ الاختراعات والابتكارات ، مادية كانت أم فكرية ، لرأينا أنها لم تنشأ عند الشعوب نشوءاً ذاتياً وتلقائياً في كل واحدة منها ، وانما اخترعت ، أو ابتكرت أول الأمر في مكان واحد ، وفي زمن معين ، ثم انتقلت عن طريق الاقتباس ، او الاستعارة ، الى شعوب وأماكن اخرى .

فالانتشار معناه انتقال ادوات أو تطبيقات أو أفكار معينة من مجتمع الى آخر ، اما عن طريق التجارة ، أو عن طريق الاتصال المنظم أو العرضي . والمفروض أننا نستطيع أن نحدد الاماكن التي انتشرت منها تلك الادوات أو التطبيقات أو الأفكار، وأن نتتبع سير تنقلها في المجتمعات حتى نعيدها الى أماكن نشوئها . ولكن ارجاع أي عنصر حضاري في الواقع الى مكان نشأته أمر صعب التحقيق في العادة . فالمعروف أن الحضارة كلفيفة الخيوط المتشابكة التي يصعب تعقب وتتبع خيوطها . وليس ضرورياً أن توجد العناصر المتشابهة في مجتمعات متجاورة . فالمشاهد ان تلك العناصر تقفز بين المجتمعات قفزات غريبة لا يمكن تفسيرها . ولذا فان رجال هذه المدرسة يفرقون بين نوعين من الانتشار ، الاول يكون فيه انتشار العنصر الحضاري متصلاً ومتغلغلاً في كل مجتمعات منطقة بذاتها ، ويطلقون عليه (التوزيع المتصل) ، والثاني يكون فيه انتشار العنصر الحضاري متقطعاً ، أو واقعاً بين مجتمعات متباعدة ، ويسمون هذا النوع من الانتشار (التوزيع المتقطع) . ويحدث هذا حين يمر مجتمع ما عنصرا حضاريا من مجتمع مجاور الى آخر دون ان يتبناه هو أو يدخله في حضارته . ولذلك اسباب عدة . فالعنصر الحضاري الوافد لا يندمج في حضارة ما مهما يكن نافعا أو جذابا ما لم تتوافر له الظروف الملائمة لذلك الاندماج . فان كان اندماج ذلك العنصر يسبب صداما قويا مع عناصر ، أو نظم ، او تطبيقات حضارية اخرى ، هي اجزاء طبيعية في حضارة المجتمع المتسلم لذلك

العنصر ، فان تبني العنصر الوافد يقاوم بشدة من قبل المجتمع المتسلم . فالمجتمعات بصورة عامة ، والبدائية منها بصورة خاصة ، محافظة الى حد بعيد ، بل هي معادية لكل تبدل حضاري ، وسبب آخر لتمرير مجتمع معين لعنصر حضاري دون أن يتبناه هو كون ذلك العنصر غير مفيد عمليا لذلك المجتمع . فاذا عاش مجتمعان متجاوران ، مجتمع زراعي ، وآخر يمتهن الرعي ، فقد يمرر المجتمع الثاني عصا الحراثة الى المجتمع الأول دون أن يتبناها ، لأنه ، عمليا ، لا يحتاج اليها ولا يمكن أن يستعملها .

وجدير بالذكر أن العنصر يخضع لسلسة طويلة من التبدلات اثناء انتقاله من مجتمع لآخر . فحيثما يُتبنى العنصر فانه يكتسب وظيفة أو شكلا جديدا غير متوقع . فالفأس الفولاذية ، التي تستعمل في (أوربا) لقطع الأشجار وتكسير الخشب ، قد تستخدم لوظائف غريبة غير متوقعة ، بل انها قد تصبح شيئا جديدا في كل شيء الا الشكل اذا ما دخلت مجتمعات بدائية . فقد تصبح في بعض المجتمعات معبودا باعتبارها تجسيدا لروح إله ، وقد تعتبر اداة تورث كشيء ثمين من مخلفات الآباء ، وقد تستعمل سلاحا للقتال ، أو أداة لقطع اللحم ، أو قد تستخدم كاداة احتفالية مثل الاقنعة والتماثيل والابواق في الحفلات الدينية .

واذا حللنا أية حضارة الى مكوناتها ، ونظرنا بصورة خاصة الى درجة اشتراك اعضاء المجتمع في تلك المكونات ، لوجدنا محتواها مركبا من ثلاثة اصناف من المكونات . ويصدق هذا التقسيم الثلاثي على أغلب العناصر والمكونات الحضارية ، ولو اننا قد نجد عنصرا يصعب ادراجه تحت واحد من الاصناف بشكل قطعي واضح .

واول هذه الأصناف هي العادات والأفكار والاستجوابات العاطفية المنتظمة أو المقيدة التي يعترف بها ويتبناها جميع أفراد المجتمع الاعتياديين السليمي العقول . ويطلق على هذا الصنف (العناصر العامة) . ولابد من الاشارة الى أن عنصرا أو مكونا معينا قد يكون أحد عناصر هذا الصنف في حضارة ما ، ولكنه يكون أحد عناصر الصنف الثاني أو الثالث ، أو ربما لا يدخل تحت أي واحد من الأصناف الثلاثة في حضارة اخرى . ويدخل تحت هذا الصنف عناصر معينة مثل اللغة ، والدين ، وطراز بناء المساكن ، والملابس ، والطراز المثالي للعلائق الاجتماعية .

والصنف الثاني هو مجموعة العناصر الحضارية التي يتبناها ، ويشترك فيها اعضاء مجموعات معينة معترف بها من قبل المجتمع دون غيرها . ويطلق على عناصر هذا الصنف

(العناصر الخاصة) . ويدخل تحت هذا الصنف الفعاليات التي يفرضها نظام تقسيم العمل في المجتمع على فئة أو قسم من المجتمع دون غيره ، كواجبات ومسئوليات النساء الخاصة بهن ، والواجبات والأعمال الملقاة على عواتق الرجال وحدهم ، وكحرف ومهارات الفنانين والاختصاصيين والعمال المهرة كالحدادين والنجارين والاطباء والقسس والشعراء والسحرة . ورغم أن أغلب العناصر الحضارية التي تقع داخل هذا الصنف تتعلق باستغلال البيئة الطبيعية ولا يشترك فيها ، بصورة حتمية ، كل أفراد المجتمع ، فان المجتمع كله يفهم ويحس الفوائد التي تنتج من هذه الفعاليات الخاصة . فالفرد الاعتيادي في المجتمع لا يعرف الاساليب الفنية التي يصنع بها الحداد السكاكين ، ولكنه مع هذا يستطيع أن يميز بين السكين الجيدة والرديئة .

وأخيراً ، هناك عناصر معينة في كل حضارة يشترك فيها افراد معينون دون بقية افراد المجتمع ودون أن يشترك فيها كل افراد فئة أو جزء معين من المجتمع . وتسمى هذه (العناصر الاختيارية) . ويدخل تحت هذا الصنف العادات الغريبة والشاذة والمذاهب الفنية . وكلما كانت الحضارات بدائية قل عدد هذا الصنف ، وأوشك أن ينعدم .

وحين يفد أي عنصر حضاري الى مجتمع ما ، فان قبوله يجب أن يسبق بفترة تجربة يخضع لها ذلك العنصر . وفي تلك الفترة التجريبية يصبح العنصر الوافد والعنصر أو العدد من العناصر التي ينافسها ويريد أن يحل محلها (عناصر اختيارية) داخل المركب الحضاري العام للحضارة ، أو بمثابة طرق متعددة تتفتح أمام المجتمع للوصول الى هدف واحد . فان ثبت أن العنصر الوافد يفي بالحاجة بشكل أكمل ، أو أصلح من العناصر القديمة التي ينافسها ، وان كان بالامكان ادماجه بنجاح في المركب الحضاري العام ، فان عدداً أكبر من افراد المجتمع يقبلون على الأخذ به حتى يحظى اخيرا بقبول عام ، ومن ثم يكسب مكانا بين (العناصر العامة) أو (العناصر الخاصة) ، ويفقد في الوقت عينه ، العنصر أو العناصر التي زاحمها العنصر الوافد ارتباطها بالمركب الحضاري ، فيسقطها المجتمع من حضارته . فان ثبت العكس فيستبعد العنصر الوافد ، ولا يستطيع أن يستقر في أي صنف من أصناف العناصر الثلاثة . وتمثل (العناصر العامة) و (العناصر الخاصة) في كل حضارة العناصر التي مرت بنجاح بتجربة الاندماج ، كما تكون تلك العناصر قد اجتازت عملية التبدل المتقابلة بينها وبين من سبقها من العناصر المكونة والمندمجة في المركب الحضاري ، تلك العملية الضرورية لاندماج أي عنصر حضاري يدخل في الصنفين المار ذكرهما . أما العناصر الاختيارية فعليها أن تجتاز تلك المرحلة

التجريبية وان تخضع لعملية التبدل .

ورغم أن عددا من العناصر الحضارية تظل لمدة غير محدودة في منطقة (العناصر الاختيارية) دون أن تحظى بقبول عام ، أو دون أن تستبعد أو تقصى ، فان أغلب هذه العناصر تكون في طريقها الى الدخول الى لب الحضارة والاندماج فيها ، أو الى ان تلفظ وتطرد من نطاق (العناصر العامة) و (العناصر الخاصة) المتماسكة المترابطة . ويبدو أن العناصر التي تستطيع البقاء معلقة لمدة طويلة في منطقة (العناصر الاختيارية) هي التي لا يكون لها تأثير عميق على السلوك العام للمجتمع .

وفرق كبير بين (العناصر العامة) و (العناصر الخاصة) من جهة ، وبين (العناصر الاختيارية) من جهة أخرى في أية حضارة ، هو أن الاولى تمتاز بتماسكها وقوة تكاملها في حين لا تملك العناصر الاخيرة هذه الصفة . فالاخيرة تتضارب فيما بينها ، كما تتناقض أو تتعارض مع عناصر احدى المجموعتين الاوليتين . ولذا فكل حضارة تحتوي في الواقع على جزئين كبيرين : الأول (لب) أو صلب متكامل ثابت يتكون من (عناصر عامة) ، و (عناصر خاصة) متوافقة منسجمة ، والثاني جزء رجراج غير متكامل ودائم التبدل ، مكون من (عناصر اختيارية) تحيط بذلك اللب ، و (اللب) هو الذي يعطي الحضارة شكلا معينا وطرزا أساسية في اية فترة من فتراتها التاريخية ، في حين تقدم (العناصر الاختيارية) للحضارة امكانياتها للنمو والتكيف . واذا ما درسنا محتوى اية حضارة للمسنا تبادلا بين الجزئين ، ولرأينا عناصر تتحرك من جزء لآخر ، عناصر تفد لتمكث فترة في المنطقة الاختيارية ثم تمر الى لب الحضارة ، وعناصر يثبت عدم صلاحها فتستبعد من اللب الى المنطقة الاختيارية ثم تسقط نهائيا من الحضارة . وحين تجتاز الحضارة مرحلة تطور سريع فان عدد (العناصر الاختيارية) يزيد على عدد (العناصر العامة) و (العناصر الخاصة) ويطغى عليها . كما أن الفرق بين الحضارات البدائية والمدنيات المعقدة هو في نسبة اللب الحضاري أي (العناصر الاختيارية) . ففي الأولى تقل فرص ظهور عناصر جديدة وافدة في الحضارة ، ولذا فان المجتمع يملك وقتا كافيا جدا لدمج الجديد واذابته في الكل الحضاري ، وعلى هذا فيكون (اللب) في هذه الحضارات البدائية الجزء الغالب في الحضارة ، بل كل الحضارة . أما في المدنيات المعقدة فان النمو المضطرد فيها ، وكثرة الاقتباس والاختراعات والابتكارات لا تمكن المجتمع من اختبار كل العناصر الجديدة ولا تعطيه الوقت الكافي لادماجها في (اللب) ، فيتسع نطاق المنطقة الاختيارية الى حد كبير بحيث يبدو (اللب) أمامها صغيرا ضئيلا للغاية .

ويحسن بنا الآن أن نمر مرورا سريعا على انتاج عالمين كبيرين في موضوع الحضارة هما (كلارك وزلر) و (رولاند دكسن) ، وندرس آثارهما دراسة نقدية لنرى كيف عالجا هذا الموضوع الهام ، ولنقف على أهم آرائهما وزنظرياتهما في الحضارة . و (وزلر) أحد كبار العلماء (الأميركان) . درس دراسة عميقة مستفيضة حضارة (الهنود الاميركيين) ، وكان أول من قام بمهمة تصنيف القبائل (الهندية) العديدة وتقسيمها الى عدد من المناطق الحضارية . وهو يعرّف الحضارة بانها (لب من الافكار والمعتقدات تُسيّر الشعب وتسيطر الى حد كبير على فعالياته) . وقبل ان يستعرض (وزلر) حضارات العالم القديم يقرر أن تاريخ الحضارة بدأ مع ظهور اول مجموعة بشرية متميزة ، ويرى أن مهدها على وجه التأكيد كان قارة (آسيا) . وكانت بعض الاختراعات الاولى لتلك المجموعة تشظية الحجر ، واستحداث النار ، وبرم الحبال ، وجهاز رمي الرمح ، والحربة ، والقوس . ثم يلاحظ ان حضارة شعب ما تتميز عن غيرها بالصفات الخاصة البارزة فيها ، ولكنه يعود فيقول (ولكن يبدو في بعض الاحيان أمر التمييز بين حضارات شعبين أو أكثر صعبا) .

ويعتنق (وزلر) مذهب (المدرسة البيئية) . فيحاول أن يظهر (ان اية حضارة هي النتاج المباشر لمجموع المؤثرات البيئية للمنطقة التي تعيش فيها) . بل ويذهب الى أبعد من هذا فيرى أن تلك المؤثرات (تقرر الاشكال الطبيعية للشعب الذي يملك تلك الحضارة كذلك) . وحين يتناول (وزلر) بحث (محتوى الحضارة) فانه يدرس (العنصر الحضاري) و (المركب الحضاري) و (الطراز الحضاري) و (المنطقة الحضارية) و (المركز الحضاري) و (تماسك مركبات العناصر الحضارية) . ويعتقد (وزلر) أن الحضارة القبلية تتميز بكثرة عناصرها الواضحة ، وان حضارة قبلية معينة يمكن أن تميز عن الاخرى باختلاف تلك العناصر . ثم يقول (ليس ممكنا أن يفقه الانسان معضلات الحضارة ما لم يدرس عدة حضارات قبلية دراسة كاملة) ، ثم يضيف (وعليه فلا تفهم الحضارة ما لم تكتمل قائمة عناصرها) . ويبدو ان كثيرا من العلماء يعارضون هذا الرأي .

ويقصد (وزلر) بالطراز الحضاري (شكل عام أو مستوى عام يمكن تمييزه بيسر عن أمثاله من الأشكال والمستويات) ، ويضيف (ومادام للعناصر الحضارية المركبة مواطن معينة تتجمع فيها فان للطراز الحضاري توزيعه الجغرافي) و (على هذا فان انقسام الحضارة ذات الطراز الواحد يكّون منطقة حضارية تتميز بذلك الطراز ذاته .

وبالاضافة الى هذا فان القبائل في منطقة حضارية معينة معينة يمكن تقسيمها الى قبائل حدية ، وقبائل مركزية ، بالنسبة لقوة ظهور الطراز الحضاري ، كما يجب أن نتوقع قيام فوارق تتناسب مع هذا التقسيم في حضاراتها . وواضح ان رسم الحدود للطرازات الحضارية على وجه الدقة والضبط صعب لان من غير اليسير الجزم بارجاع حضارة حديثة معينة الى أي واحد من الطرازات الحضارية المتجاورة . وعلى هذا ، فاذا أخذنا أية منطقة قبلية في اميركا وسجلنا في جدول توزيع العناصر الحضارية فيها فاننا نجد أن الحضارات التي على حدود المنطقة لا تضم بعض مركبات العناصر الحضارية الموجودة في حضارات القبائل القاطنة في المركز . وبتعبير آخر نجد أن الحضارات القبلية الواقعة على الحدود بين منطقتين حضاريتين حضارات مخلوطة أو حضارات منحرفة بشكل واضح عن الطرازات الحضارية الاخرى الخاصة بالمنطقة . ولكي نحدد أحدى تلك المناطق الحضارية بشكل مرض علينا أن نلجأ الى طريقة احصائية ملائمة ونسجل مركبات العناصر للقبائل الداخلة فيها كافة) .

وينظر (وزلر) الى الحضارات القبلية في (اميركا) فيرى أننا نستطيع (اذا ما صنفنا تلك الحضارات الى عناصرها الحضارية أن نحصل على مناطق خاصة بالغذاء ، ومناطق خاصة بالنسيج ، ومناطق خاصة بالخزف ، وهكذا . أما اذا أخذنا كل العناصر الحضارية بنظر الاعتبار وركزنا اهتمامنا على الكتل الاجتماعية أو القبلية فاننا نحصل على وحدات متميزة منفصلة ، وهذا يعطينا مناطق حضارية أو تصنيفا للكتل الاجتماعية حسب عناصرها الحضارية) .

و (المنطقة الحضارية) هي مجموعة مناطق توزيع تحيط بنواة حضارية ، تدعى (المركز الحضاري) . ويقوم المركز بدور الموزع ، تنتشر منه مركبات العناصر الحضارية لكل المنطقة . وحين يبحث (وزلر) تماسك مركبات العناصر الحضارية يقول (ان لم نكتشف اساسا لترابط وتماسك مركبات العناصر الحضارية بعضها ببعض غير مجرد وجودها في حضارة واحدة ، فان هذه المركبات بلا علاقة وظيفية تربط بعضها ببعض . ويبدو أن ترابط مركبات العناصر ناتج عن أسباب كلها خارجة عن المركبات نفسها . فبعض المركبات تميل الى الارتباط ، في كل حضارات العالم ، بالمركبات الحضارية الخاصة بالصيد واخرى بالمركبات الخاصة بالرعي وثالثة بالخاصة بالزراعة) .

وكان (وزلر) أول عالم ابتكر تعبير (الطراز العالمي للحضارة) ، وهو طراز مختلف اساسيا عن الطرز الاخرى مادامت هذه الطرز الاخيرة موجودة اما في حضارات معينة

فقط أو في أجزاء خاصة من الحضارات . ويجمع (وزلر) الطراز العالمي في تسعة موضوعات رئيسة يرى أنها تضم الحقائق الحضارية كافة التي تتكون منها أية حضارة . وهذه الموضوعات هي :

١ ــ الكلام (اللغة والكتابة وما الى ذلك) .
٢ ــ عناصر مادية ، وتشمل عادات الكلام والمسكن والنقل والسفر والملابس والادوات ، والآلات وما شابه ذلك ، والاسلحة والوظائف والصناعات .
٣ ــ الفن (النقش والرسم والموسيقى وما شاكل ذلك) .
٤ ــ الأساطير والمعلومات العلمية .
٥ ــ التطبيقات الدينية ، وتشمل الاشكال الدينية وعلاج المرضى ومراسم الوفاة والدفن .
٦ ــ العائلة والنظام الاجتماعي ، وتشتمل على أنواع الزواج وطرق الاعتراف بالقرابة والارث والضبط الاجتماعي والرياضة والالعاب .
٧ ــ الثروة ، وتشتمل على الثروة العامة والشخصية ومقاييس القيمة والتبادل والتجارة .
٨ ــ الحكومة ، وتتكون من الطرازات السياسية والاجراءات القضائية والقانونية .
٩ ــ الحرب .

ويبدو أن احدا من العلماء لم يأخذ بالفكرة أو يطورها أو يستخدمها بشكل جدي لغرض الوصول الى فهم أعمق لفكرة الطراز الحضاري منذ أن طلع علينا بها (وزلر) في عام (١٩٢٣) . ولكن يعتقد (ان علماء الحضارة كافة سيجدون هذا الطراز يلائمهم جميعا) ، ويضيف (ان حقائق الحضارة يمكن أن تدرس تحت هذه الابواب التسعة . ونحن نعتقد بانه ليس الحضارة التاريخية ، من اشدها بدائية الى حضارتنا الغربية ، قائمة على هذا الطراز العام فحسب ، ولكن في بعض الحالات تكون مواد تلك الحضارة متطابقة ايضا) ، ولكنه يضيف : (صحيح ان الهيكل الذي قدمناه للحضارة هو هيكل عام وهو لذلك ليس واقعيا ، ولكنه مع هذا تجريد عام مستنبط من معلومات وحقائق واقعية) .

و (وزلر) ، انتشاري معتدل ، وهو يميز بين نوعين من الانتشار . أحدهما انتشار غير موجه أو مسيطر عليه من أفراد المجتمع ، وهو غريب عنه ويفد إليه بصورة لا شعورية أو طبيعية ، والثاني يصل المجتمع حسب تصميم سابق وعلى اساس خطة مدروسة .

ويعتقد (وزلر) ان هذين النوعين يمثلان الحالات القصوى التي يجب أن تقع أية حالة من حالات الانتشار بينهما . ثم يبين ان الانتشار الطبيعي يقع باوضح صورة بين الحضارات البدائية ، في حين يحدث الانتشار الموجه ، أو المصمم ، بين المجتمعات المتقدمة . ويضرب (وزلر) مثلا بانتشار الحصان بين (هنود السهول) في الولايات المتحدة الأميركية كدليل على انتشار سريع نسبياً ، ويقرر ان هناك اسبابا تدعو الى الظن بان المعلومات حول الحصان واستعماله أدخلت الى جنوب (منطقة السهول الاميركية) من قبل (الاسبان) في حوالي عام (١٥٤٠) ، ثم انتشرت من هناك الى كل المنطقة . والى الحدود الكندية ، وما وراءها في فترة تقرب من مائة وخمسين عاما ، او ربما كانت أقل من ذلك .

ويعتقد (وزلر) ان الاختراعات هي ، الى حد ما ، اساليب خلاقة ظهرت بسببها مركبات الحضارة . وهو يعتقد بانه (لا يمكن أن توجد فكرة جديدة بشكل متميز) . (فالاختراع في المفهوم الحضاري هو علاقة جديدة تُفترض ، أو تلاحظ ، بين تجارب قديمة وليس هو تجربة بذاتها) .

واخيرا قام (وزلر) بتسجيل دقيق لما اسماه (منطقة العمر) للعناصر الحضارية مستغلا هذه النظرية في تحليل العلائق التاريخية بين (القبائل الهندية) لـ (اميركا الشمالية) . وعماد هذه النظرية هو (كلما كان توزيع العنصر محدوداً فمعنى هذا انه حديث الانتشار ، في حين ان العنصر ذا الانتشار الواسع يجب أن يكون ذا عمر طويل) . ولكن هذه النظرية انتقدت وعورضت من قبل (سابر) و (دكسن) .

أما العالم الثاني ، وهو (رولاند دكسن) ، فقد كتب كتابا قيما اسماه (بناء الحضارة) ، وكان واضحا فيه كل الوضوح في آرائه ونظرياته . فلقد عرّف حضارة أي شعب بأنها (مجموع فعالياتهم وعاداتهم ومعتقداتهم) ، وقسمها الى ثلاثة اقسام : طبيعية واجتماعية ودينية . واول هذه الاقسام ، وهي الحضارة الطبيعية المادية ، تحتوي على مكونات حضارية مثل الغذاء والملابس والمساكن والادوات والفنون والصناعات . ويضم القسمان الثاني والثالث مكونات حضارية مثل طُرُز الزواج ، والكتل الاجتماعية ، والعادات والتقاليد ، والسلطات السياسية ، وكل المعتقدات الدينية والاساطير ، الى جانب التعبيرات في العبادات والطقوس والانظمة المتعلقة بالقسس ورجال الدين الأخرين .

ويمكن تحليل أية حضارة مهما كانت معقدة أو متطورة الى عناصرها الاولية . فكل حضارة تتكون من عدد كبير أو صغير من هذه العناصر التي يمكن ان تتطور بدرجات متفاوتة من الضعف والقوة بصورة فردية . وهناك ثلاثة عوامل أولية في أصل ونمو الحضارة ، هي عوامل البيئة ، والانتشار ، والقومية أو العنصر .

ويقصد (دكسن) بالبيئة البيئة الطبيعية وحدها ، وهي عنده تشمل ثلاثة مكونات أساسية هي المناخ ، والطبوغرافيا ، والمواد الأولية . وتقدم العوامل البيئية في العادة الامكانيات ، أو تقيم الحواجز في وجه الانسان . وقد يستطيع الانسان ان يستغل الاولى ، أو لا يستطيع ، كما انه قد يتغلب على الثانية أو لا يتغلب ، ولا يوجد لدينا سبب يحملنا على الاعتقاد بان البيئات المتشابهة تخلق حضارات متشابهة . فعامل الاختيار له أهمية كبرى في تقرير نوعية العناصر الحضارية . ويتقرر هذا الاختيار بـ :

١ ــ المستوى الحضاري لافراد المجتمع
٢ ــ اتصالهم الحضاري
٣ ــ نفسيتهم القومية أو العنصرية .

ان أي استغلال للفرص تقدمها البيئة هو نتيجة الاكتشاف والاختراع . ويعتبر الاكتشاف والاختراع شيئان أساسيان في أصل المدنية ونموها . ويعتقد رجال مدرسة الانتشار بان العناصر الحضارية قد اكتشفت أو اخترعت مرة واحدة ، ومن كل اختراع أو اكتشاف فردي أخذت الامثلة الاخرى المشابهة له عن طريق الاستعارة والانتشار . ويرون ان (ليس من المعقول) ان يتم اختراع شيء واحد في أي وقت مرتين . ولكن (دكسن) لا يتفق مع رجال الانتشار في هذا الرأي ويتمسك برأي خاص به ، سنأتي على ذكره فيما بعد .

وتنشأ الاحتياجات الجديدة ، وهي نتيجة لتعقيد الحضارة عن اسباب هي : البيئة الطبيعية ، او تبدل البيئة الطبيعية ، أو نمو كثافة السكان . وقد تنشأ هذه الاحتياجات نتيجة للانتشار ، وهي في هذه الحالة متأتية عن مؤثر خارجي ، فاما ان تخلق احتياجات او تثار في المجتمع احتياجات كامنة . ويتطلب هذا خلق وسيلة لتلبيتها وتطمينها . فان كانت هذه الاحتياجات بسيطة فانها يمكن ان تطمن بمعلومات بسيطة وبطرق يسيرة . ولذا فان الاختراعات البسيطة يمكن أن تكون قد توصل اليها الانسان أكثر من مرة واحدة .

ويفرق (دكسن) بين مفهومي الاكتشاف والاختراع على اساس وجود أو انعدام الفرص . فهو يشير الى أن الاكتشاف يجب أن يحدد بالوصول الى شيء جديد وصولا عرضيا غير مرسوم ، أو مقصود ، في حين ان الاختراع هو اكتشاف مقصود . وهو يشترط ثلاثة شروط يجب توافرها قبل حدوث الاكتشاف ، وهي)

١ ــ الفرصة التي تمكن من الوصول الى الاكتشاف .
٢ ــ الملاحظة والتمحيص .
٣ ــ التقدير مضافا اليه التصور ، أو بتعبير آخر العبقرية .

ويقوم الاختراع عنده على

١ ــ الحاجة .
٢ ــ العبقرية .

ويبدو أن درجة الربط بين الاختراعات والفرص المهيأة لها هي المقياس لـدرجة الحضارة التي يتوصل اليها الشعب . ومن أهم الحقائق في هذا الصدد هي ان الاماكن الأصلية للاختراعات الرئيسة العظيمة مجهولة جهلاً مطلقا .

ويفرق (دكسن) بين نوعين من الانتشار ؛ الانتشار الاولي ، والانتشار الثانوي . فالاولي هو انتشار العنصر الحضاري الجديد بين جماعة المخترع أو المكتشف نفسه ، وفي حدود منطقته الحضارية ، في حين ان الانتشار الثانوي يتعداها الى منطقة حضارية اخرى . ويعتقد بعض علماء الحضارة ، ومنهم (وزلر) ، انه كلما اتسعت منطقة انتشار العنصر الحضاري كلما كان ذلك دليلا على قدمه . ولكن (دكسن) يعارض هذا الرأي ويضرب أمثلة مثيرة . فالدينان الاسلامي والمسيحي منتشران أكثر من انتشار البوذية ، في حين ان الدين الاخير اقدم كثيرا من الدينين الأولين . والنقود والمقايضة مثل آخر . فالاولى أحدث وأكثر انتشارا في حين ان الثانية أقدم وأقل انتشارا . ويرى (دكسن) اننا اذا اعتنقنا فكرة الزمن والانتشار فاننا قد نكون مخطئين بقدر ما نكون مصيبين اذا نحن طبقناها على عنصرين حضاريين مختلفين ، ولكننا سنكون مصيبين حتما اذا نحن طبقناها على شكلين مختلفين . او مرحلتين تطوريتين لنفس العنصر . ويكون انتشار العنصر الحضاري عادة غير منتظم ، ولو انه في حالات شاذة ينتشر بصورة منتظمة من المركز الذي انبثق منه أصلا الى كل الجهات باتجاه حدود المنطقة الحضارية . ويعتمد كل من الانتشار الأولي والثانوي في امتدادهما على الفرصة والحاجة والتقدير . فاذا ما انعدمت هذه

الشروط أو أحدها فان الانتشار لا يحدث ، ويضاف الى هذه الشروط في حالة الانتشار الثانوي لزوم كون العنصر المنتشر الى منطقة حضارية اخرى متناسبا ومتسقا مع الحضارة التي ينتشر اليها .

ويخضع العنصر الحضاري اثناء انتشاره الى التبديل والتطوير ، اما بسبب تغير البيئة الطبيعية ، او اختلاف الطراز الحضاري في المنطقة التي ينتشر اليها بالقياس الى البيئة والحضارة التي وفد منها . وقد يفشل العنصر في أن ينتشر الى منطقة بعينها لانعدام الحاجة اليه ، أو لعدم توافر الفرصة الملائمة لدخوله ، أو لعدم تقديره من قبل افراد المجتمع بسبب روح المحافظة ، ومناهضة الجديد . ويبدو ان العناصر المادية أكثر قابلية على الانتشار من العناصر الدينية ، وتأتي في المرتبة الثالثة العناصر الاجتماعية . وهذه الاخيرة أقل كل العناصر الحضارية قابلية على الانتشار . ويبدو أن العناصر غير المادية حين تنتشر من حضارتين أحدهما متقدمة والاخرى بدائية فانها تخضع بصورة عامة الى تبدل أساسي اذا كان الفرق بين الحضارتين شاسعا . ومن المهم أن نلاحظ في حالة الانتشار الثانوي انه ليس ضروريا ان يكون المركز الأصلي للعنصر مركزا جغرافيا لانتشاره في كل المنطقة التي يدخل اليها . كما ان هذا المركز الأصلي لا يكون منبعا للتطورات والتخصصات التي تطرأ على العنصر ، بل ان المناطق الحدية للعنصر في الغالب هي التي تضفي عليه التخصص .

وينتقد (دكسن) نظرية (منطقة العمر) التي ابتكرها (وزلر) والتي توصل بواسطتها الى احكامه بصدد حضارة (الهنود الأميركيين) ، وتحدى صحة المعلومات التي استنبط منها نظريته . فيقول (ان العناصر تنتشر بصورة غير هندسية ولا منتظمة وبمعدلات سرعة مختلفة) . ثم يقول (دكسن) (في حين تبدو نظرية منطقة العمر صحيحة الى حد ما في منطقة بذاتها ، فان العنصر حال مروره الى بيئة اخرى ، وحضارة مختلفة ، فانه يخضع لقوة التبدل الكبرى التي تتسلط عليه بصورة متصلة من قبل هذين العاملين ؛ البيئة والحضارة ؛ ويؤدي هذا في النهاية الى تدمير كل الأسس التي تستند عليها نظرية منطقة العمر) .

وحين يفسر (دكسن) الانتشار الحضاري يقارنه بانشار النار في الغابة فيقول : (حين تنتشر النار في الغابة فان انتشارها يعتمد على اتجاه الريح ، ونسبة جفاف الأنواع المختلفة من خشب الغابة ، وعلى وجود حواجز طبيعية في طريق سريان النار كالماء والحواجز الاخرى ، وهي لهذا لا تنتشر الى مسافات متساوية من مركز تأججها . وقد

تسري النار ، اذا اشتعلت في ظروف ملائمة ، ولم تصطدم بحواجز فتأتي على الغابة كلها وتتسع بقوة وعنف الى ما وراء حدودها) .

ويتجمع عدد من العناصر الحضارية فيكون ما يسمى (مركب العناصر) . وقد يتم هذا التجمع على أساس منطقي بين العناصر كلها ، أو بين عنصر واحد قوي متسلط وبين بعض عناصر المركب ويسمى المركب في هذه الحالة (مركب العناصر المنطقي) ، أو قد يتم هذا التجمع دون وجود هذه الرابطة المنطقية ، بل بسبب حادثة تاريخية ، ولذا فهو في هذه الحالة (مركب العناصر العرضي) . فمن أمثلة التجمع المنطقي مركب الحصان الذي يتكون من عناصر تتعلق بطريقة ركوبه والعناية به وكيفية استخدامه وطرق تكثيره وغير ذلك ، ومركب الغزل والحياكة ، ومركب الزورق والمجذاف والشراع ، وفي هذه الأمثلة يظهر الترابط المنطقي واضحا بين كل العناصر التي تكون المركب . ومن الأمثلة على المركب العرضي مركب الزراعة وصناعة الفخار الموجود في (اميركا) . فالزراعة لا تربطها رابطة منطقية بصناعة الفخار ، ويمكن ان تقوم كل واحدة منهما بصورة مستقلة تمام الاستقلال عن الاخرى .

ومركب العناصر العرضي قلق غير ثابت بدون شك ، بسبب انعدام الرابطة المنطقية بين عناصره . ولذا فانه يتفكك بسرعة ملحوظة حال تعرضه للانتشار . ولهذا السبب لا يستطيع (دكسن) ان يصدق أن مركبات العناصر العرضية تستطيع ان تمر في بيئات وتنتقل بين حضارات دون تغيير ، وعلى مدى قرون أو آلاف السنين . ومع هذا فان هذه الفرضية هي احدى أحجار الزاوية في نظرية المدرسة الانتشارية .

وتدعى ظاهرة وجود عناصر حضارية ، أو مركبات العناصر الحضارية التي تبدو متشابهة أو حتى متطابقة في منطقتين متباعدتين الى حد ما ، والتي لم يقم الدليل التاريخي على حدوث اتصال بينها (التوازي الحضاري) او (التطور المتوازي) . ويمكن تفسير هذا التشابه برأيين : إما أنه مسبب عن الانتشار أو انه مسبب عن مجرد الصدفة التي جعلت العقل البشري ذا الوحدة الأساسية ، يحاط بظروف متشابهة فيتصرف بطرق متشابهة . ويصر الانتشاريون المحدثون على أن كل اختراع ، حتى لو كان بسيطا ، لا يمكن ان يتوصل اليه الانسان مرتين في مكانين منفصلين . أما المدارس الحضارية الاخرى فانها تقسم المتوازيات الحضارية الى صنفين : الأول ، ويضم الاختراعات البسيطة ، وهذه يمكن ان يتوصل اليها الانسان مرات عديدة في أماكن منفصلة . والصنف الثاني

الاختراعات المعقدة واحتمال اختراعها مرات متكررة في أماكن منفصلة قليل ، وهي كما يظهر موجودة في مناطق حضارية كثيرة بسبب الانتشار . ويعتقد (دكسن) أن (التوازي الحضاري) في مناطق منفصلة متباعدة يعود لأحد الأسباب الآتية :

١ ــ الاختراع المستقل .
٢ ــ الانتشار المستمر مع اختفاء العنصر في فترات زمنية تالية في جزء من المنطقة .
٣ ــ الانتشار المتقطع .
٤ ــ التطور من بدايات منفصلة تمام الانفصال ينتهي الى الالتقاء .

وارجاع حالات التوازي الحضاري لأحد هذه الأسباب أمر ليس باليسير دائما لانعدام المعلومات التاريخية الصحيحة . ويعتقد (دكسن) ان الانتشار كان مسئولا عن تطور الحضارة البشرية الى حد أكبر كثيرا من الاختراع المستقل . ولكنه ، في الوقت عينه ، لا ينكر الاختراعات المستقلة التي تحدث بصورة عرضية .

ويختبر (دكسن) نظريتي (البوت سمث) صاحب المدرسة الانتشارية التي تؤمن ان مهد الحضارة البشرية كلها مصر ، وان الاختراعات كافة خرجت منها الى العالم ، ولذا فان هذه المدرسة تدعى (المذهب الهليوليثي) ، فيرفضها ، كما يرفض نظرية (كريبر) ، لانهما (تقومان على اساس مانع للغاية وتعصفان ليس بقواعد الانتشار فحسب ، بل حتى بمستلزمات العقل والادراك العام) .

ويختط (دكسن) في نظريته ، (بناء الحضارة) ، خطة جديدة اذ يتناول مشاكل الحضارة من زاوية معاكسة . فهو لا يدرس العناصر الفردية للحضارة ، ولا مركبات عناصرها ، بل يدرس حضارة الشعب ككل واحد وبناء مترابط متماسك .

ويمكن تلخيص نظرية (دكسن) في (بناء الحضارة) كالآتي : تُجلب العناصر الخارجية لحضارة الشعب بواسطة الانتشار ، وتنشأ العناصر المحلية عن طريق تبني الشعب لما يصل اليه من ارث اجتماعي ، أو بالاختراع والاكتشاف الذي يتوصل اليه نوابغ افراده بالاتصال الوثيق مع بيئتهم . ويُنسج قماش حضارة الشعب من هاتين المادتين . فتقام أسس الحضارة ، أو طرقها من الداخل ، وهي السداة بالنسبة للنسيج ، وتأتي العناصر الخارجية ، وهي اللحمة من الخارج . فالأسس أو الطرق ، السداة ، ثابتة لانها مربوطة الى البيئة الطبيعية ، في حين ان اللحمة متحركة متنقلة ، تنساب على خطوط من الانتشار . ويمكننا ان نستمر بمقارنة الحضارة بالنسيج الى حد أبعد . فاذا كانت البيئة

الطبيعية التي يسكنها الشعب متميزة واضحة اللون فان السداة ، وهي العناصر الرئيسة في حضارة الشعب والمرتبطة لدرجة ما في بيئته الطبيعية ، ستكون تبعاً لذلك واضحة المعالم . واذا ما كانت خيوط اللحمة ، وهي العناصر الخارجية التي تفد عليه ، قليلة العدد ، ضعيفة الغزل ، فان السداة تبرز في حضارته قوية ملحوظة كسداة القماش الصوفي المضلّع . ففي حضارة (الاسكيمو) تبرز العناصر المستندة الى البيئة الطبيعية متميزة واضحة اللون ، ولا توجد الكثير من العناصر الخارجية التي استطاعت ان تصل تلك المجموعة البشرية المنعزلة . ومن جهة اخرى ، حيث تكون البيئة الطبيعية فاقدة للون المحلي والشخصية القوية ، بحيث تكون العناصر الاساسية غير قابلة للتمييز نسبيا ، وعندما تكون العناصر الخارجية التي يأتي بها الانتشار كثيرة وقوية ، تتغلب اللحمة على السداة ، وتطغى عليها فتغطيها الى حد كبير ، كما هي الحال في نسيج الأقمشة الحريرية . فالعناصر الثابتة لاي شعب ، اذاً ، تمثل الفرص والقيود التي يقدمها أو يفرضها عليه موطنه ، وهي الاساس الذي تقوم عليه حضارته ، أي هي سداة الحضارة التي تمتد بين الشعب وبين بيئته . ويتحرك فوق وتحت هذه السداة القوية الثابتة (المنكوك) ، الذي يمثل الانتشار ، حاملا العناصر الخارجية الوافدة من قريب أو بعيد وناسجا اللحمة بالسداة ومكونا الألوان والنقوش التي صممها تاريخ الشعب وتوصلت اليها عبقريته في نسيجه الحضاري . ويختم دكسن عرض نظريته في كتابه (بناء الحضارة) بقوله (اننا نعيش في عالم ثلاثي الابعاد ، تشاد الحضارة البشرية بموجبه . فليس عالمنا وحيد البعد كما يراه الانتشاريون المتطرفون ، ولا هو مجرد سطح ذي بعدين مكون من بيئات متضاربة مختلفة كما يصفه البيئيون . انه أقرب ما يكون للجسم أو الكيان الصلب المثبت على اسس تمثل طوله البيئات المختلفة التي تنتثر على وجه الارض ، ويمثل عرضه مجموع الانتشار الذي حدث في تاريخ الانسان الطويل كله ، أما الارتفاع الذي يصعد اليه هذا الجسم ، أو الكيان ، فمختلف ويقاس بخليط من الذكاء والمزاج والعبقرية التي تملكها ، بدرجات متفاوتة ، كل قبيلة وأمة وعنصر .